وبما أنَّ المراد بالأرض المقدَّسة ليس أرض دمشق وفلسطين وبعض الأردنّ، وليس أرض الطور، وليس أرض أريحاء، فبقي أمامنا إذن مدينتان هما أريحاء وبيت المقدس. وبشأن مدينة أريحاء جاء في تفسير ابن كثير[1]: «عن ابن عباس قال: هي أريحاء. وكذا ذكر عن غير واحدٍ من المفسّرين. وفي هذا نظر، لأنَّ أريحاء ليست هي المقصودة بالفتح ولا كانت في طريقهم إلى بيت المقدس وقد قدموا من بلاد مصر حين أهلك الله عدوّهم فرعون. اللَّهمَّ إلاَّ أن يكون المراد بأريحاء أرض بيت المقدس كما قاله السّدّيّ فيما رواه ابن جرير عنه لا أنَّ المراد بها هذه البلدة المعروفة في طرف الطّور شرقيّ بيت المقدس».

ولا يبقى سوى أن يكون المراد بالأرض المقدّسة مدينة بيت المقدس، وهذا هو الرأي الذي نرتئيه، والله تعالى أعلم، ويقول في هذا الشَّأن ابن كثير رحمه الله تعالى رحمةً واسعة[2]: «ثمّ قال تعالى مخبراً عن تحريض موسى عليه السَّلام لبني إسرائيل على الجهاد والدخول إلى بيت المقدس الذي كان بأيديهم زمان أبيهم يعقوب لمّا ارتحل هو وبنوه وأهله إلى بلاد مصر أيَّام يوسف عليه السَّلام. ثم لم يزالوا بها حتى خرجوا مع موسى فوجدوا فيها قوماً من العمالقة الجبّارين قد استحوذوا عليها وتملَّكوها، فأمرهم رسول الله موسى عليه السَّلام بالدخول إليها وبقتال أعدائهم وبشّرهم بالنّصرة والظفر عليهم فنكلوا وعصوا وخالفوا أمره فعوقبوا بالذهاب في التّيه والتَّمادي في سيرهم حائرين لا يدرون كيف يتوجّهون إلى مقصد مدَّة أربعين سنةً، عقوبةً لهم على تفريطهم في أمر الله تعالى».

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٧).

ومن البيِّن أن أمر موسى عليه السَّلام قومه بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة قد أعقبه على الفور الوعد من الله تعالى بالنَّصر والظفر: ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدّسة التي كتب الله لكم﴾.

وبعد أمر موسى عليه السَّلام قومه بدخول الأرض المقدّسة التي كتب الله سبحانه وتعالى أنها ستكون لهم إن هم امتثلوا أمره جلّ وعلا وأطاعوا رسول الله تعالى إليهم موسى عليه السَّلام ينهى موسى عليه السَّلام قومه عن أن يرتدّوا على أدبارهم وأن يرجعوا القهقري وأن ينكصوا عن الجهاد في سبيل الله تعالى وأن يجبنوا عن القتال في مرضاة الله تعالى. وكما أردف الأمر بالإقدام بالوعد أردف النَّهي عن الإحجام بالوعيد: ﴿ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾، وهكذا يتبيَّن التَّوازن اللَّطيف بين المعنيين المتقابلين وما يترتَّب على كلٍّ منهما من نجاحٍ أو فشل، وما ينجم عن كلّ ذلك من تعاونٍ بين المعنى والمبنى في إرضاء العقل بفصوص حكم المعاني، وإشباع النفس بجميل تركيب المباني.

والحقيقة أنّا نستطيع أن نتبيَّن من القول: ﴿ولا ترتدّوا على أدباركم﴾ كلاًّ من المعنى الحسّيّ الأوّليّ والمعنويّ المترتّب على المعنى الحسّي، فثمَّة نهيٌ عن الارتداد إلى الأدبار والتَّقهقر إلى الوراء، أي عن المكان الذي كان فيه بنو إسرائيل آنذاك، والمراد بطبيعة الحال أمرهم بالتّقدم إلى الأمام، وفي حال التَّقدّم إلى الأمام أمرٌ لهم بمواصلة التقدم حتىّ النَّصر بإذن الله تعالى ونهيٌ ضمنيٌّ لهم عن الارتداد إلى الأدبار بعد التّقدّم، وعن الإحجام بعد الإقدام.

والحقيقة كذلك أنّا نستطيع أن نتبيَّن الشيء ذاته من القول بعد ذلك: ﴿فتنقلبوا خاسرين﴾ ولكنَّ الانطلاق هذه المرَّة معاكسٌ أي من المرحلة

المعنويّة التي أفضت إليها المرحلة المعنوية في القول: ﴿ولا ترتدّوا على أدباركم﴾، إلى المرحلة الحسّيّة للقول: ﴿فتنقلبوا خاسرين﴾ وبناءً على ذلك نكون بصدد مرحلتين معنويّتين ومرحلتين حسّيتين وفق ترتيبٍ لطيفٍ من المراحل وذلك على النّحو التّالي: حسّيّ، معنويّ، معنويّ، حسي.

وتفسير ذلك أنَّ القول: ﴿فتنقلبوا خاسرين﴾ يمكن أن ينظر إليه من الزّاوية الحسّيّة بحيث يكون الجانب الحسّيّ هنا موصولاً بالجانب الحسّيّ السابق. إنَّ القول: ﴿ولا ترتدّوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾، يمكن أن ينظر إليه من الزّاوية الحسّيّة فيقال: إنَّ ثمَّة نهياً عن الارتداد على الأدبار والمشي القهقري والسّير إلى الوراء. ولمّا كان الذي يرتدّ على دبره لا يرى أيّ شيءٍ وراءه، ولمَّا كان النَّهي عن الارتداد على الدّبر يعني التّحذير من السقوط في الهاوية فذلك معناه أن الذي يرجع القهقري إلى الهاوية سوف يسقط فيها. وما الذي ينتظر من ذلك الذي يسير إلى الخلف ويسقط في هاوية أو جرفٍ هارٍ. . أن ينقلب رأساً على عقب بأن يكون رأسه في موضع قدميه. إنَّ هذا المعنى الحسّيّ هو الذي يفهم في مجال الحسّ من القول: «فتنقلبوا» وإن كان في مجال المعنى يفيد مجرّد الرجوع والعودة.

وما الذي ينتظر من ذلك الذي يسير إلى الوراء ويرتدّ على دبره حتَّى يسقط في الهاوية على أمّ رأسه؟ الخسران المبين في مجال المحسوسات وذلك على غرار الخسران المبين في مجال المعنويّات.

ويلاحظ أنَّ حرف الجر «على» الذي يستعمل في القول: ﴿ولا ترتدّوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾، وليس حرف الجرّ «إلى» وإنَّ حرف الجرّ «على» هنا يذكّرنا بحرف الجرّ ذاته في مثل قوله تعالى في سورة آل

عمران[1]: ﴿وما محمدٌ إلاَّ رسولٌ قد خلت من قبله الرّسل. أفإن مات أو قُتِل انقلبتم على أعقابكم. ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً وسيجزي الله الشّاكرين﴾، وفي مثل قوله تعالى في سورة الفرقان[2]: ﴿الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنَّم أولئك شرٌّ مكاناً وأضلّ سبيلاً﴾ وفائدة حرف الجرّ «على» هنا أنه يدلّ على عمى بصيرة القوم وعلى هيامهم على أدبارهم وذلك على غرار أولئك الذين يهيمون على وجوههم بل هم أسوأ من أولئك الذين يهيمون على وجوههم لأنَّ الهيام على الوجه وإن كان يعني السير دون اهتداءٍ إلى طريق أو سيرٍ إلى غاية أهون من الارتداد على الأدبار أو الهيام على الأدبار لأنَّ السير إلى الأمام أو الهيام على الوجه أهون شرّاً في كلّ الأحوال من الارتداد على الأدبار أو الهيام على الأدبار. إنَّ حرف الجرّ «إلى» الذي لا يستعمل هنا يدلّ على الاتجاه وعلى الغاية، وإنَّ حرف الجرّ «على» الذي يستعمل هنا يدلّ على أن القوم قد ضلّوا الطريق وخسروا الغاية إثر فقدانهم الحافز والباعث. إنَّهم بدلاً من التَّقدُّم إلى الأمام ارتدّوا على الأدبار فانقلبوا رأساً على عقب وخسروا الدنيا والآخرة والعياذ بالله.

وبقدر حُسْن موسى عليه السَّلام في الحديث مع قومه وحثّهم على الإقدام سوء بني إسرائيل في حديثهم معه عليه السَّلام وسوء ارتدادهم على أدبارهم ونكوصهم عن الجهاد في سبيل الله تعالى وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة التَّالية، فإلى:

---

(١) الآية ١٤٤

(٢) الآية ٣٤.

الآية رقم (٢٢)

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

تبيّنّا أنَّ نداء موسى عليه السَّلام قومه كلّ مرة يدعوهم فيها إلى خير كان لطيفاً: «يا قوم»، وقد كان المنتظر في المقابل من بني إسرائيل أن يكون نداؤهم رسول الله تعالى إليهم نداءً لطيفاً، وخطابهم له ﷺ خطاباً ظريفاً. وللأسف كان نداؤهم فظّاً وخطابهم عنيفاً. جاء عنهم ردّاً على موسى عليه السَّلام قول الحقّ جلّ وعلا: «قالوا يا موسى» لقد كان المنتظر من القوم أن يبادلوا موسى عليه السَّلام أدباً بأدب ولطفاً بلطف، بل كان الأَوْلى بهم ذلك والأحرى لأنَّهم يخاطبون أحد عباد الله تعالى الذين اصطفاهم الله تعالى بأكبر نعمه وهي نعمة الرّسالة، فكيف إذا كان هذا النَّبيّ العظيم والرَّسول الكريم أحد أولي العزم من الرسل. وإنَّ نداء بني إسرائيل رسول الله تعالى إليهم في هذه الطريقة الفظَّة: «يا موسى» بدلاً من أن يقولوا: يا رسول الله، أو: يا نبيّ الله، يذكّرنا بوصف القرآن الكريم الأعراب الذين نادوا المصطفى ﷺ في طريقةٍ شبيهةٍ بنداء بني إسرائيل رسول الله تعالى إليهم وأسلوبٍ فظٍّ غليظ بأنَّ أكثرهم لا يعقلون جاء في سورة الحجرات[1]، قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿إنَّ الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون. ولو أنَّهم صبروا حتَّى تخرج إليهم لكان خيراً لهم. والله غفورٌ رحيم﴾.

ويصف قوم موسى عليه السَّلام سكّان الأرض المقدّسة أو المدينة

---

(١) الآيتان ٤، ٥.

المقدّسة بالقول على لسانهم: ﴿إنَّ فيها قوماً جبّارين﴾. والجبّار في صفة الإنسان يقال لمن يجبر نقيصته بادّعاء منزلةٍ من التَّعالي لا يستحقها، وهذا لا يقال إلاَّ على طريق الذّمّ كقوله عزَّ وجلّ: ﴿وخاب كلّ جبارٍ عنيد﴾. وقوله تعالى: ﴿ولم يجعلني جباراً شقيّاً﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿إنَّ فيها قوماً جبّارين﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿كذلك يطبع الله على كلّ قلب متكبّرٍ جبّار﴾، أي متعالٍ عن قبول الحقّ والإيمان له. ويقال للقاهر غيره جبّار، نحو: وما أنت عليهم بجبّار[1]، وإنَّ بني إسرائيل حينما يقولون لموسى عليه السَّلام إنَّ في المدينة قوماً جبّارين هل يظنّون أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام يجهل أهل تلك المدينة وهو الذي بعث اثني عشر نقيباً من أجل معرفة المدينة وأهلها على الحقيقة؟ إنَّ القوم على علمٍ بأنَّ موسى عليه السَّلام على علمٍ بأولئك الأقوام وإنَّما يريدون من تقرير هذه الحقيقة اتخاذها توطئةً ومبرّراً للقرار الذي اتّخذوه مخالفاً ــ للأسف ــ لقول موسى عليه الصَّلاة والسَّلام كما جاء في الآية الكريمة السابقة: ﴿ولا ترتدّوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾، إنَّ بني إسرائيل كما بدأوا القول الأوَّل بأداة التوكيد: ﴿إنَّ فيها قوماً جبارين﴾، بدأوا القول الآخر: ﴿وإنّا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنَّا داخلون﴾، وانظر إلى أداة النَّفي «لن» التي تفيد النَّفي على التَّأبيد. إنهم لن يدخلوا المدينة حتَّى يخرج الجبّارون منها فإن يخرج الجبّارون منها يدخل بنو إسرائيل فيها. وأيّ فضلٍ لبني إسرائيل وأيّ دورٍ للقوم إذا كانوا لا يدخلون المدينة إلاَّ بعد خروج أهلها! إنَّ هذا هو منطق بني إسرائيل الجبناء في ميادين القتال السّليطي اللسان على كلّ إنسان، الوقحي التصرف في حق كل إنسان، وإن كان موسى بن عمران عليه السَّلام

---

(١) مفردات الرَّاغب الأصفهانيّ «جبر» (٨٦).

رسول الله تعالى إليهم، بل إنَّا سوف نتبيَّن لاحقاً أنَّ جراءتهم قد تجاوزت موسى عليه السَّلام إلى ربّ موسى عليه السَّلام ربّ العالمين عزّ وجلّ.

وما الذي يستطيع أن يقوله موسى عليه السَّلام أو أن يفعله في حقّ هؤلاء الجبناء القليلي الحياء السَّليطي اللسان الجريئين على رسول الله تعالى إليهم بل على الله تعالى؟ لا يستطيع أن يقول عليه السَّلام أو أن يفعل شيئاً، وهنا يقول اثنان من النّقباء الاثني عشر شيئاً استمداداً لفحوى قول موسى عليه السَّلام، وذلك في الآية الكريمة التَّالية، فإلى:

الآية رقم (٢٣)

قال تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ ۖ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

هذان الرجلان هما يوشع بن نون فتى موسى وكالوب بن يوفنة[١]، ختن موسى على أخته مريم بنت عمران[٢] قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطيَّة والسّدّي والرَّبيع بن أنس وغير واحدٍ من السلف والخلف رحمهم الله[٣]، وتصف الآية الكريمة هذين الرجلين بأنَّهما ﴿من الذين يخافون﴾، وبأنّهما: ﴿أنعم الله عليهما﴾، ونستطيع أن نفهم من القول: ﴿من الذين يخافون﴾ بأنَّ صفة الخوف يشترك مع هذين الرجلين فيها آخرون من بني إسرائيل قوم موسى عليه السَّلام، ولكنَّ هذين الرجلين هما اللذان تكلَّما بالحقّ ونطقا بالصَّواب. فمن أيّ شيءٍ يخاف هذان الرجلان؟

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ١١٣).

(٢) البحر المحيط (٣/ ٤٥٥)؛ وتفسير ابن عطيَّة (٤/ ٤٠١).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٨).

يصحّ أن يقال إنَّ هذين الرجلين يخافان الله تعالى في المقام الأوّل، ولمَّا كان أمر موسى عليه السَّلام قومه بدخول الأرض المقدّسة التي كتبها الله تعالى لهم بوحي من الله تعالى يصحّ أن نفهم أن خوف الرجلين كذلك بسبب عصيان بني إسرائيل أمر الله تعالى على لسان موسى عليه السَّلام بدخول الأرض المقدّسة. والمعروف أنَّ بني إسرائيل بسبب إصرارهم على العصيان قد حرَّم الله تعالى عليهم بيت المقدس وكتب عليهم التِّيه في أرض شبه جزيرة سيناء أربعين سنة.

والمعروف أنَّ صفة الخوف نابعةٌ من الذَّات، فهذان الرَّجلان يخافان عقاب الله تعالى، وهو خوف وليد خشية الله تعالى. والمعروف أنَّ الخشية عبارةٌ عن الخوف مع التَّعظيم. لقد كان هذان الرجلان يخشيان الله تعالى ويخافان عذابه جلّ وعلا.

وإذا كانت صفة الخوف نابعةً من الذَّات وذلك في القول: ﴿قال رجلان من الذين يخافون﴾، فإنَّ صفة الإنعام من الله تعالى ثمرةٌ يانعة لخشية الله تعالى والخوف من عذابه جلّ وعلا وذلك في القول: ﴿أنعم الله عليهما﴾ وإنَّ أوَّل ما يلفت الانتباه من المقارنة بين الصّفتين أنَّ ضمير الجماعة يستعمل في القول: ﴿من الذين يخافون﴾، وذلك دليلٌ على أنَّ صفة الخوف مشتركة بين كثيرين، وإن كان ثمة تفاوت في كميّة الخوف، وكان هذان الرجلان يمتازان بنوعٍ فريد من الخوف من عذاب الله تعالى وخشيته جلّ وعلا، على حين يستعمل ضمير التَّثنية العائد على الرّجلين، في القول: ﴿أنعم الله عليهما﴾ وذلك دليلٌ على أنَّ الإنعام من الله تعالى على أتباع موسى عليه السَّلام كان خاصّاً بهذين الرجلين مقصوراً عليهما، بسبب تميّزهما في كمّيّة الخوف وصدعهما بالحقّ وجهرهما بالصَّواب.

وكي نتبيَّن نوع الصّفة التي استحقّ الرجلان من أجلها هذا الإنعام من الله تعالى نحن بحاجة إلى الاستئناس بما جاء في سورة النساء[1]، في هذا المعنى. قال تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النَّبيّين والصدّيقين والشّهداء والصّالحين. وحسن أولئك رفيقا. ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً﴾، إنَّ هذين الرجلين من المطيعين لله تعالى ولرسوله موسى عليه الصَّلاة والسَّلام. ونحن حينما ننظر إلى الصّفات المذكورة في آية سورة النّساء الكريمة نجد أنَّ منها ما هو محض فضلٍ من الله تعالى وهو النّبوّة. فهل كان هذان الرجلان أو أحدهما نبيّاً في الحال أو في الاستقبال؟ تقول الروايات إنَّ أحد هذين الرجلين وهو يوشع بن نون فتى موسى عليه السَّلام قد اصطفاه الله تعالى بعد ذلك بالنّبوّة. عن سعيد بن جبير سألت ابن عبّاس عن قوله: ﴿فإنها محرَّمةٌ عليهم. أربعين سنةً يتيهون في الأرض...﴾ الآية. قال: فتاهوا في الأرض أربعين سنة يصبحون كلّ يومٍ يسيرون ليس لهم قرار. ثمّ ظلَّل عليهم الغمام في التّيه وأنزل عليهم المنّ والسلوى، وهذا قطعةٌ من حديث الفتون. ثمّ كانت وفاة هارون عليه السَّلام. ثم بعده بمدَّة ثلاث سنين وفاة موسى الكليم عليه السَّلام، وأقام الله فيهم يوشع بن نون عليه السَّلام نبيّاً خليفةً عن موسى بن عمران. ومات أكثر بني إسرائيل هناك في تلك المدَّة[2].

وهكذا نتبيَّن أنَّ أحد الرجلين قد أنعم الله تعالى عليه بنعمة النبوة وهو

---

(١) الآية ٦٩، ٧٠.

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٠)؛ وجاء في الجلالين: «ونبّيء يوشع بعد الأربعين». وانظر هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنَّصارى لابن القيّم (ص ٥٢)، من مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة رقم ٢ سنة ١٣٩٦هـ.

يوشع بن نون عليه السَّلام. وبشأن الرجل الآخر المنعم عليه وهو كالوب بن يوفنه يصحّ أن يكون قد أنعم الله تعالى عليه بصفة الصّدّيقيَّة أو بصفة الصّلاح، وصفة الصّلاح مشتركة بين كلّ عباد الله تعالى المنعم عليهم وفيهم رسل الله تعالى وأنبياؤه عليهم جميعاً صلوات الله تعالى وسلامه. وإنَّما ذهبنا إلى أنَّ الإنعام على هذا الرّجل كان بإحدى هاتين الصّفتين لأنه لم يكن رسولاً ولا نبيّاً، ولأنَّا لا نعلم أنَّه من الذين أكرمهم الله تعالى بالشَّهادة، فلم يبق سوى صفتي الصّدّيقيّة والصّلاح. والله أعلم.

وما الذي يطلب هذان النَّقيبان المنعم عليهما من بني إسرائيل بحضرة موسى وهارون عليهما السَّلام؟ يطلبان أبسط الأعمال الضَّرورية حين البأس في ضوء وقوفهم على حقيقة أولئك العمالقة الذين تعجب النَّاظر أجسامهم وهم في الحقيقة بمنزلة الخشب المسنّدة ويحسبون كلّ صيحةٍ عليهم. إنَّ هؤلاء العمالقة بسبب خواء أرواحهم لا يحتاجون في مجال قتال قوم موسى عليه السَّلام لهم إلى أكثر من مجرّد دخول باب المدينة عليهم. ويلاحظ بشأن القول على لسان الرجلين: ﴿ادخلوا عليهم الباب﴾، أنَّ الجارّ والمجرور «عليهم» هو الذي يتقدَّم على الباب. وذلك معناه أنَّ الهدف الأهمّ الذي ينبغي أن يحرص عليه قوم موسى عليه السَّلام في قتالهم للعمالقة أن يصلوا إليهم ويلتحموا بهم. وكيف يصلون إليهم؟ عن طريق الحملة الصادقة. وكيف يلتحمون بهم؟ بما أنَّ هنالك منفذاً واحداً للوصول إلى القوم وهو باب المدينة، فقد جاء ذكر الباب في القول: ﴿ادخلوا عليهم الباب﴾ ولمَّا كان مجرَّد الوصول إلى الباب لا يكفي بل لا بدّ من العزيمة الصادقة التي يتمّ معها الوصول إلى القوم عن طريق دخول هذا الباب، ولمَّا كان العمالقة أشكالاً لا حقائق تحتها كان حديث الرّجلين عن النَّصر الأكيد

بإذن الله تعالى في ضوء القول على لسان موسى عليه السَّلام للقوم: ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدّسة التي كتب الله لكم﴾، ثمَّ في ضوء نظرهم بنور البصيرة إلى العمالقة حينما ذهبوا بأمر موسى عليه السَّلام إليهم للتجسّس عليهم ومعرفة حقيقة أحوالهم. لقد كان حديث الرجلين عن النَّصر الأكيد بإذن الله تعالى في القول: ﴿فإذا دخلتموه فإنّكم غالبون﴾.

ولا يترك الرجلان المنعم عليهما أهمّ سببين يؤديان بإذن الله تعالى إلى النَّصر وهما الإيمان والتّوكّل على الله تعالى. وإنَّ من متعلّقات الإيمان والتوكّل على الله تعالى شيئين اثنين مهمّين هما إعداد ما استطاعوا من قوَّة وحسن استعمال هذه القوَّة في كلّ الأوقات وفي كلّ الأحوال. والمعروف أنَّ ثمرة اجتماع هذه العناصر الشّجاعة الإيمانيَّة التي تُبْذَل معها الأرواح رخيصةً في سبيل الله تعالى فكيف بما دون الأرواح من حطام هذه الدّنيا، تلك الشّجاعة التي تهدّ بإذن الله تعالى الجبال فكيف بباب مدينةٍ واحد.

ولكنَّ بني إسرائيل جبناء سليطو اللسان وفيهم جراءةٌ على رسول الله تعالى إليهم موسى عليه السَّلام بل على الله تعالى ذي الجلال والإكرام. لننظر إلى الآية الكريمة التَّالية على ألسنة هؤلاء الجبناء إخوان القِرَدة الذين ضرب الله تعالى عليهم الذّلّة والمسكنة إلى يوم الدين.

الآية رقم (٢٤)

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

لننظر إلى نداء القوم موسى عليه السَّلام الفظّ الذي يجيء للمرَّة الثانية: «يا موسى»، وكأنَّ القوم ينادون شخصية عادية وليس رسولاً من الله تعالى إليهم.

وإذا كان قد جاء على ألسنة القوم من ذي قبل القول: ﴿وإنّا لن ندخلها حتّى يخرجوا منها﴾، ممّا فُهِمَ منه النَّفي على التأبيد، فإنَّ هذا النَّفي على التأبيد آكد في القول على ألسنتهم هنا: ﴿يا موسى إنَّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها﴾.

وإذا كان قوم موسى عليه السَّلام يجبنون عن مجرّد دخول باب المدينة على الجبّارين ويريدون أن يدخلوها وكأنَّها خاليةٌ من الأعداء في حين يملكها الأعداء ويملئونها فكيف يكون الانتصار على القوم وهو لا يتمّ إلاَّ بالقتال. إنَّ قوم موسى عليه السَّلام ينحطّون في وقاحتهم إلى أحطّ الدركات حينما يجيء على لسانهم القول الذي فيه الأمر لموسى عليه السَّلام بأن يذهب هو وربّه جلّ وعلا فيقاتلا فإنَّهم قاعدون. قال تعالى: ﴿قالوا يا موسى إنّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا هٰهنا قاعدون﴾.

من البيِّن أنه ليس وراء هذه الوقاحة والقباحة وقاحةٌ وقباحة. وإنَّ بني إسرائيل حينما يجيء على ألسنتهم هذا القول الذي يدلّ على منتهى الدّناءة والخسَّة والجبن والحرص على حياة هم يعلنون عن رفضهم للأمر بالقتال من الله تعالى على لسان موسى عليه السَّلام، ويكون الإعلان عن طريق الأمر استهزاءً على لسانهم في الآية الكريمة بأنَّ الآمر بالقتال والنَّاقل لذلك الأمر لهم هما الأَوْلى بأن يذهبا ويقاتلا! وليس لهذه الجراءة على الله تعالى وعلى رسل الله تعالى مثيلٌ لأنَّ القوم يعلمون أنَّ الله سبحانه وتعالى العزيز الحكيم القادر على كل شيء هو الغنيّ وأنَّهم هم الفقراء، ويعلمون بأنَّ شخصاً واحداً وإن كان نبيّاً لا يمكن أن يقاتل وحده وينتصر على جيش الأعداء فإنَّ لله تعالى سنناً وقوانين في هذا الوجود لا تتغيَّر إلاَّ بإذنه جلّ

وعلا وحده لا شريك له. فهل يريد بنو إسرائيل بهذه الوقاحة والقباحة أن تتغيَّر النَّواميس والسنن. الحقيقة أنَّا لا نجد تفسيراً لما جرى على ألسنة بني إسرائيل في هذا الخطاب سوى أنَّ القوم الذين سامهم فرعون وآله الخسف لا زالت أرواحهم ترسف في عقابيل تلك القيود والأغلال والذلّ والعبودية، وأن القوم لمّا يقدروا حقّ القدر ولمّا يستنشقوا نسائم الحرية والعزّة والكرامة. إنَّ أقل ما يطلب منهم من تضحيات في سبيل العزَّة والكرامة يحملهم على الانحطاط إلى أسفل دركات الوقاحة والقباحة والجراءة على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ.

وفي صيغة التَّأكيد يجيء على ألسنتهم القول: ﴿إنَّا هٰهنا قاعدون﴾، ومن البيِّن أنَّ الكلام يستقيم بدون ههنا في القول: ﴿إنَّا هٰهنا قاعدون﴾، ولكنَّ القوم يحوّلون القول: ﴿إنَّا لن ندخلها أبداً﴾، إلى عمل. إنَّهم يشيرون إلى المكان الذي لن يبرحوه بالقول «ههنا»، وإنَّهم يشيرون إلى هيئة الذلّ والخنوع التي يختارونها حينما يتوجّهون في حركتهم من القيام إلى القعود فتكون لهم هيئة القعود الذَّليلة التي أشاروا إليها في القول: ﴿إنَّا هٰهنا قاعدون﴾، والمعروف أنَّه ليس وراء هيئة القعود وراء في الدّلالة على الجبن والخور وضعف العزيمة والحرص على حياة وكراهة الموت واستمراء الذلّ. إنَّ لغة القرآن الشريفة لها القدرة بشأن الأصل اللّغويّ «قعد» على الدّلالة على هيئة القعود وعلى اتّجاه حركة هذا القاعد المتّجهة من العلوّ إلى السُّفول، من العزَّة إلى الذّلّة، من الكرامة إلى الهوان يقال مثلاً: كان قائماً فقعد. إنَّ هيئة الذّل التي ليس لها وراء هي التي لم يرض قوم موسى عليه السَّلام غيرها بديلاً!

وفي مقابل الأخلاق الذَّميمة لبني إسرائيل مع رسول الله تعالى إليهم

موسى عليه السَّلام نحن لا نملك إلاَّ أن نذكر ونسطّر الأخلاق الكريمة للصّحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين مع المصطفى ﷺ خاتم النبيّين وأشرف المرسلين محمد بن عبد الله ﷺ في يوم بدرٍ يوم الفرقان الذي أكتب هذه الأسطر وأنا أتنسَّم في شهر رمضان المبارك ريحه العطرة وأسترجع ذكراه الجميلة. لندع ابن كثير يحدّثنا في هذا الشأن. يقول رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً[1]: «وما أحسن ما أجاب به من الصحابة رضي الله عنهم يوم بدرٍ رسول الله ﷺ حين استشارهم في قتال النَّفير الّذين جاءوا لمنع العير الذي كان مع أبي سفيان. فلمّا فات اقتناص العير واقترب منهم النّفير وهم في جمع ما بين التسعمائة إلى الألف في العدّة والبَيْض واليَلَب[2]، فتكلَّم أبو بكر رضي الله عنه فأحسن، ثمَّ تكلَّم من تكلَّم من الصَّحابة من المهاجرين ورسول الله ﷺ يقول: أشيروا عليَّ أيّها المسلمون. وما يقول ذلك إلاَّ ليستعلم ما عند الأنصار لأنَّهم كانوا جمهور الناس يومئذ. فقال سعد بن معاذ: كأنّك تعرّض بنايا رسول الله. فوالّذي بعثك بالحقّ لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلَّف منّا رجلٌ واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً، إنّا لصُبُرٌ في الحرب صُدُقٌ في اللّقاء، لعلَّ الله أن يريك منّا ما تقرّ به عينك، فسر بنا على بركة الله. فَسُرّ رسول الله ﷺ بقول سعدٍ ونشّطه ذلك﴾، وعن أنسٍ أنَّ رسول الله ﷺ لمّا سار إلى بدرٍ استشار المسلمين فأشار عليه عمر، ثمّ استشارهم فقالت الأنصار: يا معشر الأنصار إيَّاكم يريد رسول الله ﷺ قالوا: إذاً لا نقول له كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا هٰهنا قاعدون.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٨)؛ وانظر السيرة النَّبوية لابن هشام «حلبي» (١/ ٦١٥).

(٢) اليَلَب: خالص الحديد.

والذي بعثك بالحقّ لو ضربت أكبادها برك إلى الغماد[1]، لاتّبعناك[2]، وكان ممَّن أجاب يومئذٍ المقداد بن عمرو الكنديّ رضي الله عنه الذي قال لرسول الله ﷺ يوم بدر: يا رسول الله، إنَّا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا هٰهنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون[3]، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحبّ إليَّ ممّا عدل به. أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: والله يا رسول الله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هٰهنا قاعدون، ولكنّا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك. فرأيت وجه رسول الله ﷺ يشرق لذلك وسرّ بذلك. وهكذا رواه البخاري في المغازي[4].

لقد نصر الله سبحانه وتعالى المصطفى ﷺ والفئة القليلة المؤمنة معه عليه الصَّلاة والسَّلام في يوم بدر يوم الفرقان على الفئة الكبيرة الكافرة. ولله الحمد والمنَّة.

والمعروف أنَّ الجنديَّة بحاجةٍ إلى شرطين اثنين كي يتحقَّق بإذن الله تعالى النَّصر المبين: هما الطَّاعة والنّظام. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذين الشَّرطين أو الضَّابطين. جاء في سورة محمد عليه الصَّلاة

---

(١) رواية السيرة (١/ ٦١٥): «لو سرت بنا إلى بَرْك الغِماد» وبرك الغِماد: موضِع بناحية اليمن.

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٩).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٩).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٩).

والسَّلام[1]، الإشارة إلى شرط الطّاعة. قال تعالى: ﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزّلت سورة. فإذا أنزلت سورةٌ محكمةٌ وذُكِرَ فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرضٌ ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت فأولى لهم. طاعةٌ وقولٌ معروف﴾، وجاء في سورة الصّف[2] الإشارة إلى شرط النّظام أو الانضباط. قال تعالى: ﴿إنَّ الله يحبّ الذين يقاتلون في سبيله صفّاً كأنَّهم بنيانٌ مرصوص﴾، ومن البيِّن أنَّ شرط النظام أو الانضباط مترتّب على شرط الطّاعة، بمعنى أنَّ شرط الطّاعة إذا لم يتحقّق لا يتحقّق بطريق الأحرى شرط النظام والانضباط. ولمّا كان شرط الطّاعة لم يتحقّق في قوم موسى عليه السَّلام فكيف يتحقّق الشرط الآخر المترتّب عليه، وما هو الخير الذي يُرْجى من قومٍ عاصين. إنَّ موسى لم يملك سوى أن يفرّ إلى أحكم الحاكمين وأرحم الرَّاحمين الذي سأله جلّ وعلا بأن يفرق بينه وبين قومه الفاسقين وذلك في الآية الكريمة التّالية، فإلى:

الآية رقم (٢٥)

قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

فرّ موسى عليه السَّلام إلى ربّه جلّ وعلا مربّيه بنعمه وآلائه فناداه وشكا إليه جلّ وعلا ضعفه وقلّة حيلته وهوانه على النَّاس وبيَّن في أسلوب الضَّارع إلى الله تعالى الذَّليل لمالك الملك العليم الخبير بأنَّه عليه السَّلام لا يملك إلاَّ نفسه ونفس أخيه هارون عليهما السَّلام وأنَّه لا يقدر على أحدٍ

---

(١) الآية ٢٠، ٢١.

(٢) الآية ٤.

أن يحمله على طاعة الله تعالى بفعل الأوامر واجتناب النّواهي إلاّ على نفسه وعلى أخيه عليهما الصّلاة والسّلام. ويدعو موسى عليه السّلام ربّه جلّ وعلا أن يفرق بينه وأخيه والمؤمنين وبين القوم الفاسقين، وأن يفصل بينهم وبين القوم الخارجين عن الصّراط المستقيم النّاكصين عن الجهاد في سبيل الله تعالى. وقد أجاب الله تعالى الذي يجيب المضطرّ إذا دعاه دعاء موسى عليه السّلام. وذلك في الآية الكريمة التّالية، فإلى:

الآية رقم (٢٦)

قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

من البيِّن أنّنا بشأن هذه الآية الكريمة أمام ما يسمّى بتعانق الوقف وذلك في القول: ﴿قال فإنّها محرّمةٌ عليهم. أربعين سنة﴾، بمعنى أنّا إذا وقفنا على أحد الموضعين لا نقف على الآخر لأنّ المعنى لا يسمح بذلك. وهذا معناه أنّ أمامنا ثلاث صور لتلاوة قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿قال فإنّها محرّمةٌ عليهم أربعين سنة. يتيهون في الأرض﴾.

الصورة الأولى الوصل. بمعنى أن نقرأ الكلام كلّه موصولاً دون أيّ وقف وذلك على النّحو التالي: ﴿قال فإنّها محرّمةٌ عليهم أربعين سنةً يتيهون في الأرض﴾.

الصورة الثانية أن نقف مرّةً واحدةً فقط وذلك على الجارّ والمجرور «عليهم» وذلك على النّحو التالي: ﴿قال فإنّها محرّمةٌ عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾، والمعنى بناءً على هذه الصورة من التّلاوة: أنّ الأرض المقدّسة محرّمةٌ على بني إسرائيل، وأنّ الحقّ جلّ وعلا كتب عليهم

أن يتيهوا في أرض شبه جزيرة سيناء أربعين سنة. وحينما تكون فترة التّيه أربعين سنة يكون التّحريم تبعاً لذلك أربعين سنةً أيضاً خاصَّةً وأنَّ المسافة بين مكان التّيه وبين الأرض المقدّسة ليست بعيدة.

الصورة الثالثة أن نقف مرَّةً واحدةً فقط وذلك على لفظ «سنة» وذلك على النَّحو التالي: ﴿قال فإنَّها محرَّمةٌ عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾، والمعنى بناءً على هذه الصورة من التّلاوة: أنَّ الأرض المقدَّسة محرَّمةٌ على بني إسرائيل أربعين سنة، وأنَّ الحق جلّ وعلا كتب عليهم أن يتيهوا في أرض شبه جزيرة سيناء. وحينما تكون فترة التَّحريم أربعين سنة تكون فترة التَّيَهان تبعاً لذلك أربعين سنة أيضاً.

إنَّ كلاًّ من صورة التلاوة الثلاث صحيح.

وإنَّ الصورة الثانية من صور التلاوة الثلاث أقرب إلى النفس لأنَّ الوقوف على الجارّ والمجرور في القول: ﴿قال فإنَّها محرَّمةٌ عليهم﴾ يعني أنَّ الأرض المقدَّسة قد حرَّمها الله تعالى على بني إسرائيل بنصّ القرآن الكريم وفي مقدّمتها القدس الشريف. والمعروف أنَّ القدس الشريف مسرى المصطفى ﷺ، وقد جاء في أولى آيات سورة الإسراء المكيَّة القول: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنَّه هو السَّميع البصير﴾، فالإسراء كان من المسجد الحرام في مكَّة المكرَّمة إلى المسجد الأقصى في القدس الشريف، والمعروف أنَّ المسجد مكان عبادة المسلمين على جهة الخصوص، والمعروف أنَّ الآية الكريمة الأربعين من سورة الحجّ جمعت في نسق بين أماكن العبادة للدّيانات السّماوية الثلاث، المسيحيَّة واليهوديَّة والإسلام. قال عزّ من قائل: ﴿ولولا دفع الله الناسَ بعضهم ببعضٍ لهدّمت صوامع

وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجد يُذْكَرُ فيها اسم الله كثيراً. ولينصرنّ الله من ينصره. إنَّ الله لقويٌّ عزيز﴾، إنَّ الصوامع أمكنة عبادة رهبان النَّصارى، وإنَّ البِيع بمعنى الكنائس جمع بِيعة، أمكنة عبادة عامَّة النَّصارى، وإنَّ الصَّلوات أمكنة عبادة اليهود، وإنَّ المساجد أمكنة عبادة المسلمين.

وحينما يكون الإسراء بالمصطفى ﷺ من مسجدٍ إلى مسجد، من المسجد الحرام في مكَّة المكرَّمة إلى المسجد الأقصى في القدس الشريف فذلك دليلٌ على أنَّ محمد بن عبد الله ﷺ هو الوارث الشّرعيّ لمقدّسات النَّبيّين السابقين صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين، لأنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام أشرف المرسلين وخاتم النَّبيّين، وقد قال تعالى[1]: ﴿ما كان محمد أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النَّبيّين. وكان الله بكلّ شيءٍ عليما﴾، ولأن الإسلام ناسخٌ لكلّ دينٍ سواه.

وإنَّ من ألطف الأدلَّة على أنَّ المصطفى ﷺ هو الوارث الشّرعيّ لمقدّسات النَّبيّين وأنَّ الإسلام ناسخٌ للديانات السّماوية ومن باب الأولى غير السّماوية، إضافةً إلى الكثير من الأدلّة، ومنها الأدلّة الموجودة في التّوراة والإنجيل، أنَّ القرآن الكريم الذي جمع في نسق بين أماكن العبادة في الدّيانات السّماوية الثلاث في آية سورة الحج كما مرَّ بنا، حينما يتحدَّث في سورة الإسراء عن بني إسرائيل، وعن مكان العبادة عندهم يعدل عن استعمال اللفظ الدالّ على مكان العبادة في اليهودية إلى لفظ مسجد الدالّ على مكان العبادة في الإسلام. جاء في الآية الكريمة السابعة من سورة الإسراء قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم

(١) سورة الأحزاب: الآية ٤٠.

فلها. فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أوّل مرّةٍ وليتبرّوا ما عَلَوْا تتبيرا﴾، ولا ننسى أنَّ الآية الكريمة تذكر المسجد مرّتين اثنتين، مرَّةً بصريح اللّفظ، ومرَّةً باسم الضمير في القول: ﴿كما دخلوه أوّل مرّة﴾.

ولا يعدل القرآن الكريم فقط عن استعمال اللّفظ الدالّ على مكان العبادة في اليهودية إلى استعمال لفظ مسجد الدالّ على مكان العبادة في الإسلام إنّما يعدل كذلك عن استعمال اللفظ الدالّ على مكان العبادة في النّصرانيّة إلى استعمال لفظ مسجد الدالّ على مكان العبادة في الإسلام، وذلك في الآية الكريمة الحادية والعشرين من سورة الكهف التي تتحدّث عن أهل الكهف وهم من المسيحيّين أتباع عيسى عليه السّلام. قال الحقّ جلّ وعلا: ﴿وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أنَّ وعد الله حقٌّ وأنَّ الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربّهم أعلم بهم. قال الذين غلبوا على أمرهم لنتَّخذنَّ عليهم مسجداً﴾[1].

عن ابن عباس قال: لمّا دعا موسى قال الله: ﴿فإنَّها محرَّمةٌ عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾. قال: فدخلوا التّيه. فكلّ من دخل التّيه ممّن جاوز العشرين سنةً مات في التّيه. قال: فمات موسى في التّيه ومات هارون قبله. قال: فلبثوا في تيههم أربعين سنة، فناهض يوشع بمن بقي معه مدينة الجبّارين فافتتح يوشع المدينة[2]، وعن ابن عبّاس قال: فتاهوا

---

(١) في كتابنا تأمّلات في سورة الإسراء ألمحنا إلى هذه الحكمة (ص ٤٤) تحت عنوان: الحكمة من استعمال لفظة مسجد، ودرسنا هذه الظاهرة في بحثٍ بعنوان: معان أُخَر للفظة مسجد في القرآن الكريم نشر في مجلّة التّضامن الإسلاميّ.

(٢) تفسير الطبري (٦/ ١١٧)، وفي الجلالين عن ابن عبّاس أنَّ أرض التّيه تسعةِ فراسخ.

في الأرض أربعين سنة، يصبحون كلّ يوم يسيرون ليس لهم قرار. ثمّ ظلّل عليهم الغمام في التّيه وأنزل عليهم المنّ والسّلوى. وهذا قطعةٌ من حديث الفتون. ثمّ كانت وفاة هارون عليه السّلام، ثمّ بعده بمدّة ثلاث سنين وفاة موسى الكليم عليه السّلام. وأقام الله فيهم يوشع بن نون عليه السّلام نبيّاً خليفةً عن موسى بن عمران. ومات أكثر بني إسرائيل هناك في تلك المدة. ويقال إنه لم يبق منه أحد سوى يوشع وكالب. ومن ههنا قال بعض المفسّرين في قوله: قال فإنّه محرّمةٌ عليهم. هذا وقفٌ تامّ. وقوله: أربعين سنة، منصوب، بقوله: يتيهون في الأرض. فلمّا انقضت المدّة خرج بهم يوشع بن نون عليه السّلام أو بمن بقي منهم وبسائر بني إسرائيل من الجيل الثاني فقصد بهم بيت المقدس فحاصرها فكان فتحها يوم الجمعة بعد العصر[1].

ونحن من جانبنا نرى أنَّ يوشع بن نون اتَّجه إلى الأرض المقدّسة بالجيل الثاني من بني إسرائيل الذي عاش في جوّ الحريّة والذي ورث ذلك الجيل الأوّل المنقرض الذي عاش في جوّ العبوديّة، عبوديّة فرعون وقومه. ونحن من جانبنا نرى أيضاً أنَّ القول: ﴿قال فإنّها محرّمةٌ عليهم﴾ يشمل كلّ بني إسرائيل فالأرض المقدّسة محرّمة عليهم جميعاً بنصّ القرآن الكريم.

وإنَّ من ألطف ما نودّ الإشارة إليه في مجال إعجاز القرآن الكريم أنّا في الجزء السادس من التفسير البسيط للقرآن الكريم الذي كتبت مقدّمته يوم الجمعة الموافق للحادي عشر من شهر محرّم سنة ثمانٍ وأربعمائة بعد الألف من هجرة أشرف الأنبياء والمرسلين قلنا تعقيباً على تفسير الآية الكريمة

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٠).

ما يلي[1]: «وإذا صحَّ ما يقال من أنَّ بني إسرائيل دخلوا الأرض المقدَّسة بعد مضيّ الأربعين سنةً فذلك معناه أنه خلال الأربعين سنةً حلّ جيلٌ جديد محلّ الجيل القديم الرافض للجهاد النَّاكص على عقبيه. والحقيقة أنَّ هذا درسٌ لنا نحن المسلمين مفاده أنَّ الأربعين سنةً كفيلةٌ بإذن الله تعالى لتنشئة الجيل المسلم القادر على رفع راية الجهاد في سبيل الله تعالى وحده لا شريك له. فهل الأربعون سنة تبدأ من احتلال اليهود لفلسطين أم من استيلائهم على المسجد الأقصى؟».

إنَّ هذا السؤال طرح بشقّيه لأنَّه لم يبد في الأفق بَعْدُ شيءٌ يبشّر بطلائع الفرج وبوادر الظّفر. وشاء الله تعالى قبل أن يطبع هذا العمل ويرى النّور أن تقوم انتفاضة أطفال الحجارة وكان قد مرَّ على احتلال اليهود لفلسطين أربعون سنةً بالتّمام والكمال، وقد اقترن بهذه الانتفاضة بإذن الله تعالى طلائع الفرج وبوادر الظّفر فسبحان الله تعالى العليم القدير الذي لا يعزب عنه مثقال ذرّةٍ في السَّماوات ولا في الأرض والذي لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء. نسأل الله تعالى العليّ القدير أن يلهم المسلمين رشدهم إنَّه جلّ وعلا نعم المولى ونعم النَّصير.

وفي التَّذييل: ﴿فلا تأس على القوم الفاسقين﴾، ينهى الرّب جلّ وعلا موسى عليه السَّلام أن يحزن لما كتبه الله عقاباً لبني إسرائيل الجبناء السَّليطي اللسان الجريئين على رسول الله تعالى إليهم بل عليه جلّ وعلا.

• • •

(١) التفسير البسيط (١/ ٢٠٩).

- ٦ -

قتل النفس الواحدة
كقتل كل الأنفس في العذاب
واحياء النفس الواحدة
كاحياء كل الأنفس في الثواب

الآيات (٢٧-٣٢)

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

إذا كان القسم السابق يدور حول تعنّت بني إسرائيل وجراءتهم على رسول الله تعالى إليهم موسى عليه السّلام بل على الله تعالى ربّ العالمين، فإنَّ هذا القسم يدور حول بغي أحد ابني آدم عليه السّلام وهو قابيل الشّقي على أخيه هابيل التّقيّ وبغي بني إسرائيل على عباد الله تعالى وعلى رسل الله تعالى إلى درجة القتل الفعليّ أو محاولة القتل. إنَّ السّياق يبدأ بأمر المصطفى ﷺ بأن يتلو على بني إسرائيل نبأ ابني آدم بالحقّ وبالصّدق إذ قرّبا إلى الله تعالى قرباناً فتقبّل من أحدهما وهو هابيل صاحب الضّرع بأن نزلت من السماء نارٌ بيضاء أحرقت القربان ولم يتقبّل من الآخر وهو قابيل

صاحب الزّرع. لقد حسد قابيل هابيل وصرّح لأخيه بحسده له وبحقده عليه بل وبتصميمه على قتله. ولم يملك هابيل سوى أن يبيّن لأخيه في القول الذي جرى مجرى المثل على لسانه: ﴿إنّما يتقبل الله من المتّقين﴾، السبب في قبول الله تعالى قربانه وهو تقوى الله تعالى والخوف منه وإنَّ لسان حاله يقول: تستطيع بفضل الله تعالى أن تكون من المتّقين الذين يتقبّل الله تعالى منهم صالح الأعمال ومنها القرابين. وتجاه إصرار قابيل على تنفيذ تهديده يبيّن هابيل في القول الذي جرى على لسانه الرّوح العدوانية لدى قابيل والرّوح المسالمة لديه لأنّه يخاف الله تعالى. وكما فهم قابيل من قبل أنّه ليس من المتّقين فهم الآن أنّه ليس من الذين يخافون الله تعالى. ولمّا كان هذا الفهم ليس جديداً عليه فليس يعرف حقيقة قابيل من بين عباد الله تعالى بأكثر من قابيل نفسه، ولمّا كان أيّ تقريرٍ لشقائه في الحال وفي المآل، في الدّنيا والآخرة على لسان هابيل لا قيمة له عند قابيل فقد نفّذ تهديده بقتل هابيل وتخطّي كل الموانع والحدود في سبيل هذه الغاية الخسيسة والذنب العظيم، ومن بين هذه الحواجز نفسه بين جنبيه التي تجاوزت مرحلة التّزيين والتّسويل إلى مرحلة التّكليف والأمر وهكذا أصبح الشّقيّ ذو النّفس الأمّارة بالسّوء من الخاسرين في الدّنيا والآخرة. وتكريماً من الله تعالى لهابيل المقتول ظلماً وعدواناً، وتخفيفاً من الله تعالى عن قابيل القاتل ظلماً وعدواناً يبعث الله تعالى لهذا الأخ الشقيّ الذي لم يهتد إلى الكيفيّة التي يتخلّص بها من جيفة أخيه يبعث الله تعالى غراباً، أي حيواناً، يثير التراب بمنقاره ورجليه ويهيله على غرابٍ ميّت كي يري الحيوانُ الإنسانَ المنحطَّ الكيفيّة التي يتخلّص بها من جيفة أخيه. ولا يملك الإنسان الذي أهانه الله تعالى ولم يكرمه إلاّ أن يندب حظّه وقد عجز عن أن يكون في مستوى هذا

الغراب الماثل أمامه والذي لقَّنه درساً لا يمكن أن ينساه هذا الأخ الطاغي الباغي الذي انحطّ بسبب معصيته لله تعالى عن مستوى الغراب المعروف بأنَّه من غير كرائم الطير، ولا يملك إلاَّ أن يندم ولات ساعة مندم. ولمّا كان تلاوة نبأ ابني آدم على بني إسرائيل لحكمةٍ جليلةٍ فقد نصَّت الآية الكريمة الأخيرة على هذه الحكمة الجليلة في مجال الإنباء بالغيب وهيمنة القرآن الكريم على الكتب السابقة وتصديقه لها وشهادته بصحّتها قبل التَّحريف. لقد كتب الله تعالى على بني إسرائيل في التَّوراة التي أوحاها جلّ وعلا لموسى عليه السَّلام أنَّه من قتل نفساً واحدةً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض موجبٍ للقتل فكأنَّما قتل النَّاس جميعاً بسبب كرامة كلّ نفسٍ إنسانيةٍ على الله تعالى وهوان كل نفسٍ إنسانيَّة على القاتل الباغي، ومن أحياها فكأنَّما أحيا النَّاس جميعاً بسبب كرامة هذه النَّفس على الله تعالى وعلى العبد. ويكون الإحياء بعدم القتل وبالإنقاذ من موتٍ أو شبه موت. إنَّ هذه المعاني النَّبيلة أكَّدها موكب الرّسل الكرام ولكنَّ أكثر بني إسرائيل مسرفون في الأرض.

• • •

الآية رقم (٢٧)

قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

إذا كانت أولى آيات القسم السَّابق تبدأ بالقول: ﴿وإذ قال موسى لقومه﴾، والمعنى: واذكر يا محمد إذ قال موسى لقومه، فإنَّ الآية الكريمة هنا تبدأ بالقول: ﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحقّ﴾، والمعنى: واقصص يا محمد على بني إسرائيل الذين كذّبوك وآذوك وأخفوا الكثير من تعاليم التَّوراة نبأ ابني آدم عليه السَّلام بالحقّ وخبر هذين الأخوين بالصّدق، والمعلومات الجديدة المهمّة التي أوحيها إليك أيّها الرسول الكريم والنَّبيّ العظيم عن قابيل وأخيه هابيل.

إنَّ الآية الكريمة تقرّر أنَّ كلاًّ من ابني آدم قد قرَّب إلى الله تعالى قُرْباناً، وكان هابيل صاحب ضرعٍ فقرَّب كبشاً أو بقرةً فتقبَّل الله تعالى منه، وكان قابيل صاحب زرعٍ فقرَّب سنابل قمحٍ فلم يتقبَّل الله تعالى منه. وإنَّما علم هابيل أنَّ الله تعالى قد تقبّلَ قربانه وإنَّما علم قابيل أنَّ الله تعالى لم يتقبَّل قربانه لأنَّ الله سبحانه وتعالى أرسل ناراً بيضاء فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل وبذلك كان يقبل القربان إذا قبله[1]، وإلى أكل النَّار النَّازلة من السَّماء القربان دليلاً على قبول الله تعالى القربان بشأن الأمم

(١) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٣)؛ وتفسير الطبري (٦/ ١٢١).

الماضية حتَّى بني إسرائيل أشار قوله تعالى[1]: ﴿الذين قالوا إنَّ الله عهد إلينا ألاَّ نؤمن لرسولٍ حتَّى يأتينا بقُرْبانٍ تأكله النَّار. قل قد جاءكم رسلٌ من قبلي بالبيِّنات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين﴾.

ومن البيِّن أنَّ القرآن الكريم لا يتعرَّض للجزئيات التي لا تخدم الغرض الذي سيق النَّبأ من أجله، فنحن نعلم أنَّ النَّبأ متعلِّقٌ بابني آدم عليه السَّلام دون أن نعرف اسميهما. وانظر إلى القول: ﴿فتقبّل من أحدهما ولم يتقبَّل من الآخر﴾، إنّا بصدد أخوين اثنين وقد تقبَّل الله تعالى قربان أحدهما، الأول أو الثاني ولم يتقبل جلّ وعلا قربان الآخر. إنَّ السياق لا يجيء فيه القول: فتقبَّل من أولهما ولم يتقبَّل من الثاني ولكن يجيء القول: ﴿فتقبَّل من أحدهما﴾، فبقي الآخر الذي قد يكون الأول وقد يكون الثاني وإلى ذلك أشار القول: ﴿ولم يتقبَّل من الآخر﴾، وإنَّ هذا القول يذكّرنا بقول الحقّ جلّ وعلا في سورة البقرة[2]: ﴿فإن لم يكونا رجلين فرجلٌ وامرأتان ممَّن ترضون من الشهداء أن تضلّ إحداهما فتذكّر إحداهما الأخرى﴾، إنَّ كلاً من المرأتين يمكن أن تكون النَّاسية وأن تكون الذاكرة ولهذا جاء في حق كلّ منهما القول: «إحداهما» وفي حالة النسيان تكون الأخرى ذاكرة، وفي حالة التَّذكر تكون الأخرى ناسية وقد أشير إليهما معاً بلفظ: «الأخرى».

وانظر إلى القفزة الهائلة التي قفزها قابيل في القول عنه: ﴿قال لأقتلنّك﴾ إنَّ داء الحسد الكامن في أعماقه لأخيه لأنَّ الله سبحانه وتعالى تقبّل قربانه حمله على أن يبعد النُّجْعة فيصرّح له في أقوى عبارة:

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٨٣.

(٢) الآية ٢٨٢.

«لأقتلنَّك» إنَّ اللام لام القسم لقسمٍ مقدّر وإنَّ النون نون التوكيد[1]، وإنَّ هذا الشّقيّ لا ترضى نفسه الأمّارة بالسّوء بأقلّ من قتل أخيه التّقيّ النّقيّ الصّالح. ولماذا يصمّم على قتل أخيه الذي تقبّل الله تعالى قربانه؟ لأنَّ أخاه بنصّ الآية الكريمة تقيّ ولأنه في المقابل شقيٌّ والعياذ بالله. لقد جاء على لسان هابيل النّص على سبب قبول الله تعالى قربانه، وهو تقوى الله تعالى في السّرّ والعلن بفعل الأوامر واجتناب النّواهي، وفي ذلك تعريضٌ بقابيل بأنَّه والعياذ بالله غير تقيّ أي شقيّ. قال تعالى: ﴿قال إنّما يتقبّل الله من المتّقين﴾، وانظر إلى أداة الحصر: «إنّما» وهل يستطيع هابيل التّقيّ أن يقول لأخيه قابيل الشّقي أقل ممّا جاء على لسانه وهو الذي يهدّده بالقتل لأنه من المتّقين. وما الذي حال بين قابيل وبين أن يكون واحداً من المتّقين كأخيه هابيل؟ لا شيء ولكنَّه الحسد الذي تمكّن من قابيل والبغي الذي اتّصف به ضدّ أخيه التّقيّ النّقيّ الذي يخشى عذاب الله تعالى ويخاف عقابه تعالى ويرجو ثوابه. ولو أنّا أردنا أن نملأ الفراغات التي تجاوزها هابيل في ردّه على أخيه لصحّ أن نقول إنَّ قابيل حينما قال لهابيل: «لأقتلنَّك» كأنّه أراد أن يقول: ولماذا تريد أن تقتلني؟ ألأنَّ الله تعالى تقبّل قرباني دون قربانك؟ أتريد أن تعرف لماذا تقبّل الله تعالى قرباني دون قربانك؟ لأنَّ الله تعالى إنَّما يتقبّل من المتّقين وليس من غير المتّقين. وكأنَّ لسان حال هابيل يقول قابيل: إنَّك ــ والعياذ بالله ــ لشقيّ. وإنَّ القول على لسان هابيل: ﴿إنَّما يتقبل الله من المتّقين﴾، ليجري مجرى المثل. وهو إذا كان متعلّقاً بالماضي والحاضر، فإنَّ الآية الكريمة التّالية متعلّقةٌ بالمستقبل وبالحاضر أيضاً، فإلى:

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه (٣/ ٢٧٤).

الآية رقم (٢٨)

قال تعالى: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨﴾.

إنَّ القول هنا: ﴿لئن بسطت إليَّ يدك لتقتلني ما أنا بباسطٍ يدي إليك لأقتلك﴾، يذكّرنا بما سبق أن جاء في الآية الكريمة الحادية عشرة من السورة الكريمة في قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قومٌ أن يبسطوا إليكم أيديهم فكفَّ أيديهم عنكم﴾، إنَّ أعداء المؤمنين أرادوا أن يبسطوا أيديهم إلى المؤمنين بالسّوء إلى درجة القتل.

وإنَّ القول هنا: ﴿إنّي أخاف الله ربّ العالمين﴾، يذكّرنا بالقول عن الرّجلين اللذين أنعم الله تعالى عليهما بأنَّهما من الذين يخافون وذلك في قول الحقّ جلّ وعلا في الآية الكريمة الثالثة والعشرين من السورة الكريمة: ﴿قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون. وعلى الله فتوكّلوا إن كنتم مؤمنين﴾، إنَّ هذين الرّجلين المنعم عليهما من الذين يخافون الله تعالى ربّ العالمين.

وإنَّ من أهم ما يلفت النَّظر بالمقارنة بين القول عن الشَّقيّ من الأخوين والقول عن التَّقيّ منهما أنَّ القول عن الشّقي يجيء فيه تقديم الجار والمجرور وتأخير اليد المضافة إلى ضمير المخاطب دليلاً على النَّفس العدوانيَّة لهذا الأخ الشَّقيّ. قال تعالى: ﴿لئن بسطت إليَّ يدك لتقتلني﴾، إنَّ يد هذا الأخ الشَّقيّ قبل أن تتحرَّك وتُبْسط هي تعرف الهدف الذي تحرص نفس الشقيّ الأمارة بالسوء على أن تتَّجه نحوه وتصيبه وهو قتل الأخ التَّقيّ. قارن هذا القول عن الشّقيّ الذي تقدّم فيه الجار والمجرور

وتأخَّرت اليد بالقول عن التَّقيّ الذي تأخّر فيه الجار والمجرور وتقدَّمت اليد. قال تعالى: ﴿لئن بسطت إليَّ يدك لتقتلني ما أنا بباسطٍ يدي إليك لأقتلك﴾، إنَّ يد هذا الأخ التَّقيّ التي تعوَّدت أن تبسط بالخير وتمتد بالمعروف لن تبسط إلى هذا الأخ الشَّقيّ من أجل قتله ومعاملته بالمثل وإلحاق السّوء به. ولا يمنع ذلك من بسط هذه اليد لدفع السّوء وإبعاد الشر. والفرق بيِّنٌ بين دفع السّوء والاندفاع بالسّوء. وما الذي يمنع هذا الأخ التَّقيّ هابيل الذي كان أشدّ قوّة من قابيل عن أن يقتل أخاه الشّقيّ الذي كان واثقاً من استعداده لتحويل تهديده في القول: «لأقتلنَّك» إلى عمل؟ تحرّجه من القتل[1] بدليل القول على لسانه: ﴿إنِّي أخاف الله ربّ العالمين﴾ والمعروف أنَّ الإيمان قيد الفتك والإسلام يمنع الأذى.

ولا تتجلَّى نفس الشَّقيّ العدوانية من تقديم الجارّ والمجرور الدّالين على أنَّ الأخ التَّقيّ هو الغرض ومن تأخير اليد فحسب، ولا تتجلَّى نفس التَّقيّ المطمئنة من تأخير الجارّ والمجرور الدّالين على أن الأخ الشقيّ ليس هو الغرض ومن تقديم اليد فحسب، ولكن يتَّضح ذلك كذلك من مجيء جملة القسم: ﴿لئن بسطت إليَّ يدك لتقتلني﴾ بلفظ الفعل ومجيء جواب القسم: ﴿ما أنا بباسطٍ يدي إليك لأقتلك﴾ بلفظ اسم الفاعل. ليفيد هذا الأخ التَّقيّ أنَّه لا يفعل ما يكتسب به هذا الوصف الشَّنيع ولذلك أكَّده بالباء المؤكّدة للنَّفي[2].

ولمَّا كان هذا الأخ التَّقيّ القويّ البدن والإيمان يمنعه إيمانه من أن يبسط يده إلى أخيه بالقتل، ولمّا كان بنور بصيرته على علمٍ بتصميم أخيه

---

(١) انظر البحر المحيط (٣/ ٤٦٢).

(٢) انظر الكشاف (١/ ٤٥٦).

على قتله فقد لجأ إلى ما يلجأ إليه كلّ قويٍّ يمنعه إيمانه عن الفتك إلى التَّخويف من الإقدام على العمل الذي يغضب الله تعالى ومن نار جهنَّم التي جعلها الله تعالى جزاءً لكل ظالم ومعتدٍ وباغ. فكيف إذا كان الظلم قتل نفسٍ بريئةٍ ظلماً وعدواناً وقد قال الله تعالى[1]: ﴿ومَنْ يقتل مؤمناً متعمّداً فجزاؤه جهنَّم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً﴾، لقد جاء على لسان الأخ التَّقيّ من هذا المعنى الآية الكريمة التَّالية، فإلى:

الآية رقم (٢٩)

قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾.

وأوَّل ما يلفت النَّظر في الآية الكريمة جملة أريد المؤكَّدة في القول: ﴿إنِّي أريد﴾، والمعروف أنَّ الإرادة في الأصل قوَّةٌ مركَّبةٌ من شهوةٍ وحاجةٍ وأمل، وجُعِل اسماً لنزوع النَّفس إلى الشَّيء مع الحكم فيه بأنَّه ينبغي أن يُفْعل أو لا يُفْعَل[2]، وإنَّ ما جرى على لسان الأخ الشَّقيّ قابيل من قولٍ في صيغة التأكيد خطاباً لأخيه التَّقيّ هابيل: «لأقتلنَّك» وما أدركه هذا الأخ التَّقيّ من تصميم لأخيه الشقيّ على تنفيذ التَّهديد حمله كلّ ذلك على أن يجيء على لسانه في صيغة التوكيد النَّصّ على الإرادة التي لا نتبيَّن اللَّفظة الأخرى التي تقوم مقامها وتشهد مشهدها: «إنّي أريد» وكأنَّ هذا الأخ التَّقيّ أحسّ بدنوّ أجله على يد أخيه الحسود الحقود الشَّقيّ، فجرى على لسانه جملة «أريد» التي تدلّ على العزم الأكيد والحرص الشديد. إنَّ هذا الأخ

---

(١) سورة النساء: الآية ٩٣.

(٢) مفردات الرَّاغب الأصفهانيّ «رود» (٢٠٦).

التَّقيّ، الذي يخاف الله تعالى، القويّ الذي قيّده الإيمان عن الفتك يحوّل تلك القوَّة عزماً حديداً وإرادةً أكيدةً.

وانظر إلى جملة: «تبوء» في القول: ﴿إنّي أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النَّار﴾. التي تدلّ على الانصراف والرّجوع[1]، وعلى الجزاء والاستحقاق، وعلى المساواة والمكافأة[2] ولا يقال باء إلاَّ موصولاً إمّا بخيرٍ وإمَّا بشرّ. يقال منه: باء فلانٌ بذنبه يبوء به بوأً وبواءً[3]، وقال عليه الصَّلاة والسَّلام في دعائه ومناجاته، أبوء بنعمتك عليّ، أي أُقِرّ بها، وألزمها نفسي[4].

إنَّ هذا التَّقيّ النَّقيّ، المؤمن المتوكّل على الله تعالى المحتسب، الواثق من حرص أخيه على تنفيذ تهديده له بالقتل يقول لهذا الأخ الشَّقيّ: إنّي أريد أن تبوء بإثمي وإثمك، وأرغب أن تعود وتنصرف، بعد أن اعتديت عليّ بالقتل، بإثم قتلك لي ظلماً وعدواناً، وإثمك الذي ارتكبت من قبل، وأن تنصرف مستحقّاً للعقاب الذي جعله الله تعالى مقابلاً لقتل النَّفس المؤمنة بغير حقٍّ، ومساوياً لإزهاق الرّوح البريئة على جهة البغي، وذلك في قول الحقّ جلّ وعلا[5]: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنَّم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً﴾، لقد جاء على لسان هذا الأخ التَّقيّ المظلوم في هذا المعنى القول: ﴿إنّي أريد أن تبوء

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٥٠).

(٢) انظر الكشاف (١/ ٢١٩)؛ والبحر المحيط (١/ ٢٣٦).

(٣) تفسير الطبري (١/ ٢٥٠).

(٤) تفسير القرطبي (٣٦٦).

(٥) سورة النساء: الآية ٩٣.

بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النّار. وذلك جزاء الظّالمين﴾.

وإن الآية الكريمة التّالية لتشير إلى تنفيذ التّهديد بالقتل، فإلى:

الآية رقم (٣٠)

قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

من الملاحظ أنّه يجيء في الآية الكريمة القول: ﴿فطوّعت له نفسه قتل أخيه﴾، والمعروف أنّ طوّعت أبلغ من أطاعت[١]، وقوله: وطوّعت له نفسه، نحو أسمحت له قرينته وانقادت له وسوّلت[٢] له نفسه وحسّنت وشجّعته على قتل أخيه[٣]، وحينما نعلم أنّ القول: وطوّعت له نفسه بإزاء قولهم: تأبّت عن كذا نفسه[٤]، وفي مقابل القول: تأبّت عليه نفسه، يصحّ أن نفهم أنّ هذه النّفس الشّرّيرة لقابيل تجاوزت مرحلة أن تطيع هي قابيل إلى مرحلة أن تطوّع قابيل وتروّضه وتطرد كل ما من شأنه أن يجعله يتردّد في قتل أخيه والعياذ بالله، وكان لهذه النّفس الشّرّيرة الغلبة على صاحبها والسّيطرة عليه حتّى نفّذ تهديده فقتل أخاه. ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم.

وانظر إلى جملة أصبح في القول هنا: ﴿فأصبح من الخاسرين﴾، وفي القول في الآية الكريمة التّالية: ﴿فأصبح من النّادمين﴾، وإذا كان

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ «طوع» (٣١١).

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ «طوع» (٣١١).

(٣) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٥).

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ «طوع» (٣١١).

المرزوقيّ صاحب أهمّ شروح ديوان الحماسة لأبي تمّام قد قال بشأن جملة أمسى في بيت شهل بن شيبان الزِّمّانيّ الملقَّب بالفِنْد، بمعنى القطعة العظيمة من الجبل:

فلمَّا صرَّح الشَّر فأمسى وهو عُرْيان

قد قال ما يلي: «فائدة أمسى وأصبح وظلَّ وبات في مثل هذا المكان على حدّ الفائدة في صار لو وقع موقعها، ألا ترى قوله تعالى: ﴿وإذا بُشِّر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسودّاً﴾، والبشارة بالأنثى تقع ليلاً ونهاراً. وكذلك تقول: ﴿أصبحوا خاسرين، وأمسَوْا نادمين، وإن كانوا في كلّ أوقاتهم على ذلك﴾»، والمعروف أنَّ الظّلّ من أوَّل النهار إلى الزَّوال ثمّ يُدْعى فيئاً بعد الزوال إلى اللَّيل وأنشد:

فلا الظلّ من برد الضُّحى تستطيعه ولا الفيءَ من برد العشيّ تذوق

وسواد الليل كله ظلّ. يقال: ظلّ نهاره يفعل كذا. وكذا يَظَلُّ ظلاًّ وظُلولاً وظِللت أنا وظَلْتُ وظِلْت، لا يقال ذلك إلاَّ في النَّهار[1]، إذا كان المرزوقيّ قد قال ذلك فالملاحظ أنَّ القرآن الكريم إنَّما يستعمل جملة أصبح كثيراً. وعلى الرّغم من كون الفترة الزَّمانيَّة التي تدلّ عليها جملة أصبح وأمسى وأضحى وما إليها ليست مقصودةً لأنَّ هذه الجُمَل أفادت معنى جملة صار على حدّ قول المرزوقيّ، فإنّا يصحّ أن نلمح مغزىً معنويّاً بعيداً وبلاغيّاً بديعاً من استعمال مثل جملة أصبح كثيراً في القرآن الكريم. ويبدو هذا الملمح البلاغيّ البديع حينما ندرك أن الصّبح والصّباح أوَّل النَّهار وهو وقت ما احمرَّ من الأفق بحاجب الشَّمس، وقد قال تعالى:

---

(١) انظر لسان العرب: «ظلل».

﴿أليس الصّبح بقريب﴾[1] باعتبار الصّبح أوّل النهار. أما هذا الملمح البلاغيّ فهو أنَّ قابيل الشّرّير بعد أن طوّعته نفسه الشّريرة وانقاد لها وقتل أخاه سُرْعان ما أصبح وصار من الخاسرين في الدّنيا والآخرة بشأن القول: ﴿فأصبح من الخاسرين﴾ وسُرْعان ما أصبح وصار من النّادمين لشقائه في حمل جثّة أخيه التي لم يعرف كيف يتخلّص منها لأنّها أوّل جثّةٍ لإنسان في الأرض وذلك بشأن القول: ﴿فأصبح من النّادمين﴾، وإنَّ الآية الكريمة التّالية تشير إلى عذاب قابيل في الدّنيا بقتل أخيه قبل عذاب الآخرة حينما حمل جثّته ولم يعرف كيف يتخلّص منها، فإلى:

الآية رقم (٣١)

قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

قتل الشَّقيّ قابيل أخاه التَّقيّ هابيل. ولمَّا كان هابيل أوّل قتيل من بني آدم بل أوّل ميِّت فإنَّ الشَّقيّ قابيل لم يعرف كيف يتخلّص من جثّة أخيه القتيل كما أنَّ الله سبحانه وتعالى لم ينر بصيرته ولم يسدّد خطاه وهو الذي قتل نفساً بريئةً دون نفسٍ أو فسادٍ في الأرض بل بباعث الحسد. إنَّ الشَّقيّ قابيل الأعمى البصيرة قد زاده الله تعالى عمىً إلى عماه، فإذا كان لم يهتد بذاته إلى الكيفية التي يستطيع عن طريقها أن يتخلَّص من سوءة أخيه بمعنى جيفته[2]، فإنَّ ربّ العزَّة أراد أن يعذّبه في الدّنيا قبل الآخرة فمكث حاملاً

---

(١) انظر مفردات الرَّاغب الأصفهانيّ «صبح» (٢٧٣).

(٢) تفسير الطبري (٦/١٢٨).

لجيفة أخيه مدَّةً طويلة امتدَّت إلى سنةٍ واحدة حسب بعض الرّوايات وإلى أكثر من سنة حسب رواياتٍ أخرى[1]، وحينما شاء الله تعالى أن يكرم القتيل التَّقيّ ويخفّف العذاب عن القاتل الشَّقيّ بعث جلّ وعلا غراباً يبحث في الأرض وينبش ترابها بمنقاره ورجليه ويثيره على غرابٍ آخر ميّتٍ حتَّى واراه عن الأنظار ودسَّه في التّراب في الوقت الذي يرى قابيل كلّ ما يفعل الغراب في حقّ الغراب الميّت أو القتيل فيما يقال[2]، قال تعالى: ﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه﴾.

ويلفت النظر في الجزئيّة الكريمة مجيء جملة «بعث» ذات العلاقة بالبعث بمعنى الإرسال والبعث بمعنى الإحياء والخروج من القبور، في هذا الجوّ الذي يلفّه التَّهديد بالقتل والتَّنفيذ الفعليّ للقتل، والذي يملؤه ويفسده ما يزكم الأنوف من روائح جيفتين لإنسانٍ ولغراب اخترمهما الموت. كما يلفت النظر بشأن الغراب ما يرتبط باسمه من معنى الإبعاد في الذّهاب والاغتراب[3]، إنَّ البعث والإرسال كان لهذا النوع من الطّيور الموغلة في الإبعاد والاغتراب، وإنَّ ذلك الغراب الذي من سماته الإيغال في الطّيران وأكل الجيف يهبط إلى الأرض، ويبحث فيها ويثير ترابها ويضعه على أخيه الغراب، وكلّ ذلك دليلٌ على قدرة الفعّال لما يريد الذي لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء. والعجيب أنَّ إنساناً يقتل أخاه الإنسان وأنَّ حيواناً يدفن أخاه الحيوان وذلك دليلٌ على انحطاط بعض الناس عن مستوى الحيوان إدراكاً وقيمة. والعجيب كذلك أنَّ حيواناً هو الغراب يلقي درساً

---

(١) انظر تفسير الطبري (٦/ ١٢٧)؛ وتفسير ابن كثير (٢/ ٤٥).

(٢) انظر الجلالين وتفسير الطبري (٦/ ١٢٧)؛ وتفسير ابن كثير (٢/ ٤٥).

(٣) انظر مفردات الرَّاغب الأصفهانيّ «غرب» (٣٥٩).

عظيماً على الإنسان وهو قابيل الشَّقيّ. وينبغي أن يكون لما بين بعث ويبحث من جناسٍ غير تامّ دورٌ لطيفٌ في مجال ظاهرة تلاؤم الأصوات.

وحينما أدرك قابيل أنَّ المجهود الهائل الذي بذله في حمل جيفة أخيه قد مضى سدى وذهب أدراج الرّياح نادى الويل الذي انتابه، والشّرّ الذي حلَّ به، والهلاك الذي نزل بساحته، لأنَّ الأصل: يا ويلتِي ثم أبدل من الياء ألف. وهي كلمةٌ تدعو بها العرب عند الهلاكِ[1]، قال تعالى: ﴿قال يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواريَ سَوْءة أخي فأصبح من النَّادمين﴾، إنَّ قابيل ينادي الويل والثّبور، وفي أسلوب الاستفهام الإنكاريّ يسأل متعجباً: أعجزت أنا الإنسان القريب العهد من أبي آدم عليه السَّلام الذي كرَّمه الله على سائر المخلوقات الأرضيَّة عن أن أكون مثل هذا الغراب القريب منّي والذي يدفن أخاه الغراب في التّراب، والذي يلقّنني هذا الدرس العظيم في التَّخلّص من جيفة أخي الّتي شقيت بها اللَّيالي والأيَّام ذوات العدد.

ويصبح قابيل الشَّقيّ من النَّادمين.

ويصحّ أن يكون النّدم ليس ندم توبة[2]، ولكنّه ندم حمل الجيفة الأوقات الطّوال.

ويصحّ أن يكون النَّدم ندم توبة على ما فرط منه من معصية الله عزّ ذكره في قتله أخاه[3].

---

(١) تفسير القرطبي (٢١٤٢).

(٢) تفسير القرطبي (٢١٣٩).

(٣) تفسير الطبري (٦/١٢٨).

إنَّ من ينظر إلى النَّدم من زاوية تهديده أخاه فقتله هذا الأخ يصحّ أن يفهم أنَّ النَّدم ليس ندم توبة نصوح إلى الله تعالى.

وإنَّ من ينظر إلى النَّدم من زاوية حمل هذا الأخ الشَّقيّ جيفة أخيه التَّقيّ هذه الفترات الطّوال دون أن يتخلَّص منها بأيّ وسيلة يصح أن يفهم أنَّ النَّدم ندم توبة.

وما دام النَّوعان من النَّدم واردين فليس هناك ما يمنع أن يكونا معاً مقصودين من قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿فأصبح من النَّادمين﴾.

ونستطيع أن نفهم بداهةً أنَّ قابيل دفن جيفة أخيه هابيل في التّراب محاكاةً للغراب وأسوةً بفعله مع الغراب الآخر من جنسه.

ولمّا كانت تلاوة نبأ ابني آدم في الآيات الكريمات إنَّما كان على بني إسرائيل بنصّ الآية الكريمة الأولى في القِسْم ولمّا كانت التّلاوة لحكمةٍ جليلةٍ فقد نصَّت الآية الكريمة التَّالية على هذه الحكمة الجليلة، فإلى:

الآية رقم (٣٢)

قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

بما أنَّ الشَّقيّ قابيل قد سنَّ سنَّةً سيّئةً بقتله ظلماً وعدواناً أخاه التَّقيّ هابيل فقد كتب الله سبحانه وتعالى وشرع على بني إسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم جميعاً صلوات الله تعالى وسلامه وقضى في التَّوراة التي أوحاها لموسى عليه السَّلام وعلى ألسنة أنبياء بني إسرائيل أنَّه من قتل نفساً بغير نفسٍ مقتولةٍ وبغير فسادٍ في الأرض من محاربةٍ لله تعالى

ورسله وارتدادٍ عن دين الإسلام وزنىً بعد إحصان وما إلى ذلك من أنواع الفساد في الأرض التي سوف تشير الآية الكريمة التّالية إلى بعضها فكأنّما قتل هذا القاتل كل نفسٍ إنسانيّة، لأنّ هذه النّفس الإنسانيّة كريمةٌ على الله تعالى وليس من حقّ أيّ إنسانٍ أن يضع نهايةً لها دون وجه حقّ، بل إنّ الإنسان ذاته لايملك نفسه فليس من حقّه أن يضع نهايةً لحياته لأنّه يتصرّف فيما لا يملك دون وجه حقّ. ولمّا كان من قتل نفساً إنسانيّةً واحدةً كأنّه قتل النّاس جميعاً لأنّه لا فرق عنده بين نفسٍ وأخرى لذا كان الوزر الذي احتمل من الضّخامة وكأنّه قتل كلّ نفسٍ إنسانيّة.

وكما كان قتل النّفس الإنسانيّة الواحدة مساوياً في الوزر لقتل كلّ نفسٍ إنسانيّة كان في المقابل إحياء النّفس الإنسانيّة الواحدة مساوياً في الثّواب لإحياء كل نفسٍ إنسانيّة بسبب كرامة هذه النّفس الإنسانيّة الواحدة عند الله تعالى، ولأنّ من أحيا بإذن الله تعالى نفساً إنسانيّةً واحدة مستعدٌّ للعمل الطّيّب ذاته في حقّ كلّ نفسٍ إنسانيّةٍ أخرى إذ لا فرق بين نفسٍ وأخرى. ويكون إحياء النّفس الإنسانيّة بإذن الله تعالى عن طريق الامتناع عن قتل النّفس الإنسانيّة دون وجه حقّ، كما يصحّ أن يكون عن طريق إنقاذ نفسٍ إنسانيّة من هلاكٍ محقّق أو شبه محقّق. إنّ ثواب إحياء نفسٍ إنسانيّة واحدة مساوٍ في الثّواب لإحياء كل نفسٍ إنسانيّة وذلك في مقابل وزر قتل النّفس الإنسانيّة الواحدة المساوي لوزر قتل كلّ نفسٍ إنسانيّة.

وهل انتفع بنو إسرائيل من هذه الدروس السماويّة التي تضمّنتها التوراة التي أوحاها الله تعالى لموسى عليه السّلام كبير بني إسرائيل؟ إنّهم بنصّ القرآن الكريم لم يتورّعوا عن قتل النّبيّين بغير حقّ فكيف بمن هم دون النّبيّين من صدّيقين وصالحين.

لقد نصَّت الآية الكريمة في جزئيَّتها الأخيرة على أن بني إسرائيل قد جاءتهم رسلهم بالآيات البيِّنات ووصلتهم فعلاً مواكب الرسل الكرام الذين أرسلهم الله تعالى بالنّور المبين مروراً بعيسى ابن مريم عليه السَّلام وانتهاءً بمحمد بن عبد الله ﷺ خير الأنام ومع ذلك فإنَّ كثيراً منهم بعد كلّ أولئك الرسل وتلك الآيات الواضحات لمسرفون في الأرض مفسدون فاسقون خارجون عن الصراط المستقيم والنَّهج القويم. وإنَّ من أقرب الأدلَّة على ذلك وأقواها موقف بني إسرائيل من خاتم النَّبيّين وأشرف المرسلين محمد بن عبد الله ﷺ. لقد حاولوا مراراً الفتك به ﷺ كما أنَّهم غدروا به وبقومه ﷺ مرَّاتٍ عديدة في أصعب المناسبات وأشدّ المواقف وفي مقدّمتها غزوة الأحزاب أو الخندق. وقد ثبت بالدَّليل القاطع أنَّ علاج القوم إخراجهم.

• • •

- ٧ -

جزاء المحاربين لله ورسوله الساعين في الأرض فساداً

الآيات (٣٣-٤٠)

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٣٦ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٣٧ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٤٠ ﴾.

تحدّث السياق من ذي قبل عن البغاة الّذين همّوا أن يبسطوا إلى المؤمنين أيديهم بالسّوء ومنهم بنو إسرائيل، كما تحدَّث عن نقض أهل الكتاب الميثاق وجراءة بني إسرائيل على موسى عليه السَّلام وعلى الله تعالى جلَّت قدرته. وبعد الحديث عن البغي الجماعيّ لبني إسرائيل تحوّل السياق إلى الحديث عن بغي أحد ابني آدم عليه السَّلام على الآخر وعن عاقبة البغي. ثمَّ كانت آيات القسم الذي نحن بصدده والذي تحدَّث عن البغاة من المحاربين لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين وعن الّذين يسعون في

الأرض فساداً بقطع الطريق وإخافة السبيل. إنَّ لهؤلاء الخزي في الدّنيا والعذاب العظيم في الآخرة. إنَّ خزي الدنيا يتجلّى في نوع العقوبة الذي يستحقّون وفق الذنب الذي يرتكبون والجرم الذي يأتون. إنَّهم إن قتلوا قُتِلوا، وإن هم قتلوا وسرقوا قتلوا وصُلِبوا، وإن هم سرقوا قُطِعَتْ أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإن هم أخافوا السبيل نُفوا من أرض النَّازلة ومكان الجريمة. ويفتح السياق للبغاة باب التّوبة النَّصوح إلى الله تعالى قبل أن تنالهم يد العدالة وتقدر عليهم يد السلطة لأن الله تعالى هو الغفور الرَّحيم. ولمّا كانت التّوبة بدايةً طيّبة لعمل الصَّالحات كان ثمَّة حثٌّ للمؤمنين على تقوى الله تعالى وطلب القربة عنده جلّ وعلا بعمل ما يرضيه تعالى والجهاد في سبيله جلّ وعلا بكلّ ما يستطيع المجاهد من قوَّة البدن أو المال أو القلم أو اللّسان لعلَّهم ينجحون في الامتحان الأعظم. وبشأن الّذين يصرّون على الكفر يبيِّن السياق أنّهم لو كان عندهم يوم القيامة ما في الأرض جميعاً ومثله معه من أجل أن يفتدوا أنفسهم من عذاب ذلك اليوم ما تُقُبّل منهم. وبما أنَّ مبدأ الفداء مرفوض فذلك معناه البقاء في النَّار وفي عذابها المقيم. ولمّا كان السّارقون والسّارقات فئةً من فئات الّذين يسعون في الأرض فساداً وكان لهم حكمهم الخاصّ بهم لأنَّهم لم يقطعوا الطريق فقد تحول الحديث إليهم في ثلاث آياتٍ كريمات. وإنَّ من أهمّ ما لفت الانتباه في الآيات الكريمات الثلاث مجيء لفظ الجلالة: «الله» مرتين اثنتين في كلٍّ من الآيات الكريمات الثّلاث التي تضع قواعد عامَّة في مسألة السرقة ومتعلّقاتها. والمعروف أنَّ لفظ الجلالة: «الله» إنَّما يجيء في القرآن الكريم في مواطن العموم. وإنَّ من ألطف ما لفت الانتباه في الآيات الكريمات الثّلاث التَّناغم بين صدر الآية الكريمة وعجزها أو التَّذييل وترتّب العجز على الصَّدر،

وترتّب كلّ آيةٍ على ما سبقها وبخاصَّة الآية الكريمة الثالثة والأخيرة المبنيّة على الآيتين الكريمتين السابقتين. لقد تحدَّثت الآية الكريمة الأولى عن حدّ السّرقة جزاءً للسّارق والسّارقة وعبرةً لغيرهما لذا كان التّذييل: ﴿والله عزيزٌ حكيم﴾، وتحدَّثت الآية الكريمة الأخرى عن التَّوبة النَّصوح بعد ظلم الإنسان نفسه وعن صلاح العمل بين يدي تفضّل الله تعالى بقبول التَّوبة. إنَّ الله سبحانه وتعالى هو الغفور للذنوب الذي يرشد إلى التَّوبة، وهو الرَّحيم الذي يقبل التَّوبة ويرشد إلى شرط قبولها وهو عمل الصالحات لذا كان التّذييل: ﴿إنَّ الله غفورٌ رحيم﴾، ولمّا كان حديث الآية الكريمة الأولى عن حدّ السرقة وحديث الآية الكريمة الأخرى عن فتح باب التَّوبة بالاستغفار وعمل الصالحات لذا تقدَّم العذاب وتأخَّرت المغفرة في القول من الآية الكريمة الثالثة: ﴿يعذّب من يشاء ويغفر لمن يشاء﴾، ولمَّا كان هذا وذاك من دلائل القدرة وكانت الآية قد تحدثت عن أكبر مظاهر القدرة وهو ملك الله تعالى السَّماوات والأرض لذا كان التَّذييل معمّقاً لمعنى القدرة وذلك في القول: ﴿والله على كل شيءٍ قدير﴾.

• • •

الآية رقم (٣٣)

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾.

سبب النّزول:

الذي عليه جمهور العلماء أنَّ الآية الكريمة نزلت في العُرَنيّين. روى الأئمة واللَّفظ لأبي داود عن أنس بن مالك أنَّ قوماً من عُكْل[١]، أو قال من عُرينة قدموا على رسول الله ﷺ فاجتووا المدينة[٢]، فأمر لهم رسول الله ﷺ بلِقاح[٣]، وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها فانطلقوا. فلمّا صَحُّوا قتلوا راعي النَّبيّ ﷺ واستاقوا النَّعَم. فبلغ النَّبيّ ﷺ خَبَرُهُمْ من أوّل النَّهار فأرسل في آثارهم، فما ارتفع النَّهار حتَّى جيء بهم، فأمر بهم فقطعت أيديهم وسَمَرَ[٤] أعينهم وألقوا في الحرّة[٥] يستسقون فلا

---

(١) عُكْل، بضمّ العين المهملة وسكون الكاف: قبيلةٌ مشهورة.

(٢) لم يوافقهم هواء المدينة واستوخموها.

(٣) رواية أسباب النزول للواحديّ: «بذَوْد» والذَّوْد: القطيع من الإبل، يقال: هو من الثَّلاث إلى التِّسع.

(٤) سمر أعينهم: سملها بمعنى فقأها بمسامير أحميت في النَّار فكحلهم بها.

(٥) الحرّة، بفتح الحاء وتشديد الرَّاء: أرض بركانية ذات حجارة سود خارج المدينة.

يُسْقَون. قال أبو قِلابة: فهؤلاء قومٌ سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم وحاربوا الله ورسوله.

وفي رواية: فأمر بمسامير فأحميت فكَحَلَهُمْ وقطع أيديهم وأرجلهم وما حَسَمَهُمْ[1]، وفي رواية: فبعث رسول الله ﷺ في طلبهم قافة[2] فأُتي بهم. قال: فأنزل الله تبارك وتعالى في ذلك: ﴿إنَّما جزاء الّذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً...﴾، الآية[3]، وقد حكى أهل التَّواريخ والسير أنّهم قطعوا يدي الرَّاعي ورجليه وغَرَزُوا الشّوك في عينيه حتَّى مات وأُدخل المدينة ميتاً وكان اسمه يَسار وكان نُوبيّاً. وكان هذا الفعل من المرتدّين سنة ستٍّ من الهجرة[4].

تبيّن الآية الكريمة جزاء الّذين يحاربون الله تعالى ورسوله المصطفى ﷺ بارتكاب النَّواهي والّذين يسعون في الأرض فساداً بقطع الطريق وإخافة السبيل، وتنصّ على أربعة أنواعٍ من العقوبات لأربعة أنواعٍ من الجرائم وهذه العقوبات هي القتل، والقتل مع الصَّلب، وقطع الأيدي والأرجل من خلاف، والنَّفي من أرض النَّازلة: «قال الجمهور: هذه الآية منزلةٌ على أحوال كما قال أبو عبد الله الشَّافعيّ: أنبأنا إبراهيم بن أبي يحيى عن صالح مولى التَّوأمة عن ابن عباس في قطّاع الطريق إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم

---

(١) حسم العرق: قطعه ثمَّ كواه لئلا يسيل دمه.

(٢) القافة جمع قائف وهو الذي يتبع الأثر.

(٣) تفسير القرطبي (٢١٤٥)؛ وانظر أسباب النّزول للواحدي (٢٢٥)؛ وتفسير ابن كثير (٢/ ٤٩)؛ وتفسير الطبري (٦/ ١٣٣).

(٤) تفسير القرطبي (٢١٤٥).

يصلبوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف[1]، وإذا أخافوا السَّبيل ولم يأخذوا المال نفوا من الأرض... وهكذا قال غير واحدٍ من السَّلف والأئمة. واختلفوا هل يصلب حيّاً ويترك حتى يموت بمنعه من الطعام والشراب، أو بقتله برمحٍ أو نحوه، أو يقتل أوَّلاً ثمَّ يصلب تنكيلاً وتشديداً لغيره من المفسدين، وهل يصلب ثلاثة أيَّامٍ ثم ينزل أو يترك حتى يسيل صديده. في ذلك كلّه خلافٌ محرَّرٌ في موضعه وبالله الثّقة وعليه التُّكلان»[2].

والآية الكريمة تقرّر أنَّ هذا الجزاء الرّادع الذي يناله الّذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً خزيٌ لهم في هذه الحياة الدّنيا وعارٌ وذلّةٌ ونكال[3] بين يدي عذاب الآخرة العظيم الأليم في نار الجحيم والعياذ بالله.

ولمّا كان باب التَّوبة النَّصوح مفتوحاً على مصراعيه فقد تحدَّثت الآية الكريمة التَّالية في هذه التَّوبة، فإلى:

الآية رقم (٣٤)

قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

لمّا كان الله سبحانه وتعالى هو الذي يقبل التّوبة عن عباده ويعفو جلّ

---

(١) أي: أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى تفسير الطبري (٦/ ١٤٠)؛ والجلالين.

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٥١)؛ وانظر تفسير القرطبي (٢١٤٨)؛ وتفسير الطبري (٦/ ١٣٦)؛ وتفسير ابن عطيّة (٤/ ٤٢٧).

(٣) تفسير الطبري (٦/ ١٤٢).

وعلا عن السيئات ويعلم ما يفعل عباده، ولمّا كان للتوبة شروطها، إذا كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى، وإذا كانت المعصية تتعلّق بآدمي، فقد تحدَّثت الآية الكريمة عن التَّوبة. ولمَّا كان بين العلماء اختلافٌ بشأن المعصية حينما تكون بين العبد وبين الله تعالى وحينما تكون بين الإنسان وأخيه الإنسان فإنَّا نودّ بين يدَيْ تفصيل الحديث عن الآية الكريمة أن نشير إلى شروط التَّوبة. يقول الإمام النووي في رياض الصالحين[1]: «قال العلماء: التَّوبة واجبةٌ من كلّ ذنب. فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلَّق بحقّ آدميّ فلها ثلاثة شروط: أحدها أن يُقْلِعَ عن المعصية. والثاني: أن يندم على فعلها. والثالث: أن يَعْزِم ألاَّ يعود إليها أبداً. فإن فقد أحَدُ الثلاثة لم تصحّ توبته. وإن كانت المعصية تتعلَّق بآدميّ فشروطها أربعة، هذه الثَّلاثة وأن يبرأ من حقّ صاحبها. فإن كانت مالاً أو نحوه ردّه إليه، وإن كان حدَّ قذفٍ ونَحْوَهُ مكَّنه منه أو طلب عفوه، وإن كانت غِيبةً استحلَّه منها. ويجب أن يتوب من جميع الذُّنوب، فإن تاب من بعضها صحّت توبته عند أهل الحقّ من ذلك الذَّنب وبقي عليه الباقي. وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسُّنَّة وإجماع الأمَّة على وجوب التَّوبة».

إنَّ الآية الكريمة تستثني من خزي الدّنيا وعذاب الآخرة الّذين تابوا من قبل أن تقدر السلطة عليهم. ولا يخفى ما في هذا الاستثناء من دورٍ فعّال في حمل هؤلاء المحاربين لله ورسوله السَّاعين في الأرض فساداً على الكفّ عن أفعالهم الشَّنيعة والتَّوبة إلى الله تعالى الذي يغفر الذّنوب جميعاً.

ونستطيع أن نفهم أنَّ حقّ الله تعالى بنفي من أخاف السبيل وقطع

---

(١) ص ١٠.

الطريق دون أن يسرق أو يقتل يسقط في حال التّوبة بنصّ الآية الكريمة. ولمّا كان من قطّاع الطّرق من هو ذو شوكة في حال ضعف السلطة ويرتكب جرائم القتل والسرقة فما معنى عدم قبول توبته في حال عدم القدرة عليه وفي حال القدرة عليه ووجوب إقامة الحدّ عليه؟ معنى ذلك أنّه يظلّ حرباً للسّلطة حتّى يلقى الله تعالى أو حتّى يقع تحت يد السلطة كي تقتصّ منه، ومعنى ذلك استمرار الحرب بين هذا الفريق من قطّاع الطرق وبين الدولة والمزيد من القتل ومن المآسي. ويبدو أنَّ هذه الملابسات التي تحيط بالرّأي الذي يذهب إلى أنَّ حقّ الذات العليّة وحده هو الذي يسقط في حال التّوبة قبل قدرة السلطة على قطّاع الطريق هو الذي جعل العلماء يختلفون بشأن التّوبة: هل هي مقصورة على حقّ الله تعالى أم أنها واسعةٌ وتشمل كل ذنبٍ تتحقق كل شروط التّوبة بشأنه. وبين يدي تسجيل موجز الاختلاف أودّ أن أشير إلى ما نقرأ ونسمع من مواجهاتٍ داميةٍ مستميتةٍ بين العصابات التي تهرّب المخدّرات مثلاً وبين الدول التي تحارب تلك المخدّرات والتي جعلت الإعدام عقوبةً لتهريبها والتّجارة فيها. بما أنَّ الموت مصير الوقوع في يد السلطة لذا فقد كانت المواجهات داميةً دائماً بين العصابات والسّلطات لأن في هذه المواجهات الدامية احتمال نجاة بعض أفراد العصابات من موتٍ محقّق فيما لو وقعوا في يد السلطة. إنَّ هذه الملابسات تجعل الرّأي الذي يرى أن كل حدٍّ يسقط بالتّوبة له شيءٌ من وجاهة، خاصّةً في حال ضعف السلطة وقوة تلك العصابات. يقول القرطبي في معرض ذكره موجز الآراء في هذه المسألة[1]: «استثنى جلّ وعزّ التّائبين قبل أن يُقْدَر عليهم، وأخبر بسقوط حقّه عنهم بقوله: ﴿فاعلموا أنَّ الله غفورٌ

(١) تفسير القرطبي (٢١٥٥).